دراسة حول نهاية الأدب للنويري

من موسوعة الأدب واللغة هل التعبير الجميل بلغة رصينة هو الأدب؟

عبد الحليم الندوي أستاذ بالجامعة الملية الإسلامية
(دلهي الجديدة)

توصلنا من حضرة الاستاذ عبد الحليم الندوي بهذه الدراسة الشيقة التي شارك بها في مسابقة المكتب الدائم ، الا ان لجنة التحكيم ارتات انها تحيد عن موضوع المسابقة ـ ونظرا لقيمتها اقتطفنا منها هذا القسم الذي ننشره شاكرين :

ولد النويري في اواخر القرن السابع الهجري ، القرن الذي شهد تطورات سياسية هامة ، غيرت مجرى التاريخ الاسلامي بسبب فتنة التتار الجامحة التي اعقبتها ويلات ودمار انجلت عن حركة علمية ، من نوع جديد ، لم يكن للعالم الاسلامي ، بها عهد من قبل. فما ان يكاد فجر القرن السابع الهجري يشرق الا ونرى العقول العربية ، التي لم تزل طوال السنوات الماضية ، تزود المجتمع العربي ، بانتاجها الخصب ، ونتائج قرائحها الفياضة ، قد توقفت او تكاد ، وذلك بسبب تغير الاوضاع والظروف التي قلما تسمح لاصحاب الفكر والعلم والمشتغلين بالادب والفن ، بمزاولة اعمالهم الفنية ، وممارسة انتاجهم العلمي والادبي دون ان يتوجسوا خيفة او وجلا . وبخاصة بعد ما كان هؤلاء العلماء قد الفوا جوا وظروفا تتنافى والتي ابتلوا بها في هذه الحقبة من الزمن ، فلما نجد انتاجا علميا خصبا ، او مادة ادبية فنية غزيرة ، او شعرا عذبا بليغا ، من ذلك النوع الذي تطرب له القلوب وتترنح له المشاعر والاحاسيس. ولكن ما تكاد تنقشع غياهب هذه الفتنة حتى يبرز رهط من العلماء ، ليقوم بحركة مباركة يمكن ان نسميها بـ «حركة الموسوعات». وغاية هذه الحركة هو جمع ما يوجد من نتاج العلماء القدماء ، وما وضعوه في مختلف العلوم والفنون من كتب خوفا من ضياعها ، على ايدي الغزاة . ذلك ان التتار قتلوا « كثيرا من علماء المسلمين ببغداد وغيرها: وممن قتل ببغداد الشيخ محي الدين بن الجوزي واولاده. وكذلك اتلفوا كثيرا من دور الكتب واحرقوها. وقد امر هولاكو وقت فتح بغداد بالقاء جميع الكتب التي في دور الخلفاء في نهر دجلة . وبذلك ضاعت على الدين ذخائره ، وعلى العلوم والآداب نفائسها ، فقدت العربية الى الابد آلافا من المؤلفات » (1) فلما راى العلماء هذه الكارثة الرهيبة وما جرت من ضياع اكبر العلماء واجلهم شانا « وجدوا انفسهم ـ بعد هذه الكارثة الرهيبة ـ مسئولين امام الله عن دينه ، وامام التاريخ عن نهضة العلم واقالة عثاره ، وامام ضمائرهم عن معارفها وامام اوطانهم عن تدعيمها . فدفعهم شعورهم العميق بهذه المسئولية وضخامتها الى الجد في العمل لتلافي ما فات، وبذل الجهد لاعادة هذا الصرح المنهار » (2) ومن هنا نجد طائفة من العلماء في هذا

1) عن مختصر ابي الفداء ج 4 ص 194، نقلا عن كتاب « عصر سلاطين المماليك » لمحمود رزق سليم المجلد الثالث ص : 17 .

2) نفس المرجع السابق .

العصر قد عكفت على دراسة ما تبقى من هذا التراث الضخم ، واستخلاص موارده ، وجمعه في كتب مطولة ضخمة ضنا به وحفظا له .

والغريب في الامر ان هذا الرهط من العلماء وخاصة النويري ، اتخذ في مرامه هذا ، اسوة حسنة من حياة رهط من الصحابة ، قاموا ، خوفا من الضياع والذهاب ، بأول عمل للجمع والتدوين تم في اللغة العربية وتاريخ المسلمين ، واعني به جمع القرءان الكريم وتدوينه في مصحف مكتوب . فقد نقلوه من الجلود ، والعظام والعسب واللخاف التي كانت سور القرءان الكريم او آياته قد كتبت عليها زمن النبي صلى الله عليه وسلم او من صدور الصحابة من الحفاظ الذين كانوا يسمون القراء عصر ئذ . وكان الباعث الهام والاول هو توجس الخيفة من ضياعه او ذهابه مع من ذهب من القراء في الحروب والغزوات ، كما حدث في غزوة اليمامة .

فقد روى المؤرخون ، انه عندما ارتدت بعض القبائل من أهل الجزيرة ابان خلافة سيدنا ابي بكر الصديق ، وارسل القوات الاسلامية لقمع دابرهم ، دارت بينهما وبين المرتدين معارك دامية ، استشهد فيها حوالي 1200 مسلم من بينهم 700 قارىء . ففزع المسلمون كثيرا لهذه الظاهرة التي تعرضت لهم أول مرة في حياتهم . وخافوا اذا ما استمرت الحال على هذه الوتيرة ، ان يحرموا من القرءان الكريم بموت او شهادة حفاظه . وكان منهم اكثر خوفا سيدنا عمر بن الخطاب ، فسعى الى ابي بكر يحاوره في الامر . واشار عليه ان يقوم بجمع القرءان الكريم حفظا له وضنا به . الا ان ابا بكر تردد في الامر وتريث وقال : « كيف افعل امرا لم يفعله رسول الله ولم يعهد الينا فيه عهدا » . ولكن عمر الح عليه واصر ، فخضع له آخر الامر ورأى الحكمة في جمعه . فطلب الى زيد بن ثابت وكان من ابرز كتاب الوحي ، في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فجمعه مما وجده مدونا عند الصحابة ، وما كانوا قد حفظوه في صدورهم ، فجعل مصحفا كاملا وسلمه الى ابي بكر . فلما توفي ابو بكر تسلمه عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء وبعد وفاته في سنة 23 هـ ، انتقل المصحف الى كريمته حفصة ام المؤمنين .

وفي زمن سيدنا عثمان بن عفان ، **عندما توسعت رقعة الفتوحات** وانتشر المسلمون الى اقطار مختلفة وبلدان عديدة ، مع نسخ من القرءان الكريم يعولون عليه **ودخلت في حظيرة الاسلام شعوب وقبائل تتغاير لغاتها ولهجاتها لهجة قريش** ، التي نزل القرءان الكريم بها . وحدث اختلاف في قرائته ، وبدا في ادراك معناه ، اتصل حذيفة بن اليمان بعثمان ، وانبأه بما رآه اثناء سفره الى آرمينيا وآذربائيجان في غزوة ، من اختلاف المسلمين في القراءة والتفاخر بها والتمسك بها ، حذره من العاقبة الوخيمة التي قد يؤدي اليها هذا الاختلاف وهذا الوضع الشاذ اذا ما تفشى بين المسلمين وقال قولته المعروفة : « ادرك هذه الامة قبل ان يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى » . ففطن عثمان الى ما في قوله من حكمة واستصوب رايه . وطلب الى حفصة يقول لها : « ارسلي الينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها اليك » ففعلت ، فاستدعى عثمان رهطا من الصحابة من كتبة الوحي والمتضلعين في القرءان الكريم ، مثل زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وغيرهم وامرهم ان ينسخوا القرءان ويستعينوا على القراءة بما حفظه القراء . وقال لهم : « اذا اختلفتم وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوه **بلسان قريش فانما انزل بلسانهم** » ، ففعلوا وكتبوا اربعة مصاحف بعث بها عثمان الى الامصار . وابقى عنده نسختين ، احداهما لاهل المدينة والاخرى لنفسه . وسميت هذه الاخيرة « بالامام » . ثم جمع المصاحف والصحف الاخرى وامر باحراقها .

ومن نسخ عثمان المرسلة الى البلدان والامصار الاسلامية الكبرى مثل مكة والبصرة والكوفة والشام، استنسخ المسلمون مصاحف اخرى ، حتى كثرت النسخ ، فاصبحت الى مئات ، الى واقعة صفين بين علي ومعاوية حسب قول المسعودي .

تلك هي الاسوة الحسنة التي جعلها النويري نبراسا له يهتدي به خير مثال يقتفيه . فقد جمع القرءان اول مرة بسبب خوف الضياع وذهاب اهله . فبينه وعمل النويري شبه قريب . فانه ايضا **قام بجمع تراث الاسلاف** خوفا من الضياع على يد الحدثان وخاصة **بعد ما رأى ما آل اليه امر الكتب والكراسات والنفائس العلمية** ، اثر اكتساح التتار الاقطار الاسلامية والعراق منها بصفة خاصة .

ثم جمع القرءان الكريم **اتقاء لشر تفشي اللهجات المختلفة وتعدد المعاني والمفاهيم القرءانية من اجلها** . وتفاديا لوقوع الخلاف والشجار بين المسلمين فيه . فاننا ولو نستبعد قيام النويري بهذا العمل اتقاء لشر تفشي اللهجات وتفاديا لوقوع الخلاف ، الا انه يتبادر الى الذهن أن النويري يمكن أن يكون قد فكر في

الموضوع من هذه الناحية ايضا . فمن يدري لعله راى انه عند جمعه لهذه المؤلفات يصونها من الضياع من ناحية ، ويصونها ايضا من وقوع الشك والريبة فى نصوصها وموادها من ناحية اخرى ، وخاصة عندما يطول عليها الامد . فعمد الى ضبط نصوصها فى سجل ولم يمض على وضعها عهد بعيد ، ويتمه بيديه وهو العالم الخبير « الفقيه الفاضل والمؤرخ البارع ، له مشاركة جيدة فى علوم كثيرة » حسب قول التغري بردي . والواقع ان الكتب التي اختصرها او نقلها فى كتابه كانت خليقة بالتغيير والتبديل او للشك والشبهة فى نصوصها خلال التيارات السياسية والاجتماعية التي مر منها المجتمع الاسلامي فى تلك العصور . (1)

وبما ان القاهرة ، مدينة المماليك ، كانت فى مامن من ويلات هذه الفتنة الطاغية ، فلقد انبعثت هذه الحركة ـ حركة الموسوعات ـ من هذه الارض الخصبة المطمئنة . فسجل القائمون بها ، ما تركته لنا جهود العلماء من السلف ، من نتاج خصب ، من علم وادب ، وحكمة ومعرفة ، ودين وموعظة ، وتاريخ وسيرة ، وغيرها من الفنون . « فالفضل الاكبر فى بقاء آداب اللغة العربية فى ذلك العصر يرجع الى مصر والشام ، وهما فى حوزة السلاطين المماليك ومن بقي من الملوك الايوبيين . فقد كانت الملجأ الوحيد لابناء هذا اللسان فى فرارهم من وجه المغول عند اكتساحهم خراسان وفارس والعراق » (2) ومن بين القائمين بهذا العمل الجليل ، شهاب الدين احمد النويري الكندي البكري صاحب « نهاية الارب فى فنون الادب » . حقا ان هذا العمل لا يتعدى « ان يكون ترديدا لما فات ، وجمعا لمتفرق او تفريقا لمجتمع » (3) الا انه ليس من شك بأن هذا « الترديد لما فات » له الفضل الاكبر فى حفظ ما خلفه لنا آباؤنا واجدادنا من هذا التراث الضخم الغزير الذي لولا « هذا الترديد » لكان قد اصبح فى حديث الماضي ، مثل الكتب القيمة الاخرى ، التي لا نجد لها ذكرا . الا بين طيات كتب التاريخ او كتب الطبقات . وان وجدت فانها لا تزال زينة الرفوف فى المكتبات ، لم يقدر لها ان ترى النور بعد . او هى مخطوطة نادرة نعرف او لا نعرف لها مقرا .

نشا النويري فى هذه الظروف ، وترعرع فى هذه الفتنة « واشتغل بوظائف حكومية متعددة ، فى بلاط السلطان الملك ناصر (محمد بن قلاوون) الا ان نفسه الطموح لم ترض عن مزاولة هذه الوظائف التي كانت قد جعلت منه اداة للجهاز الحكومي ليس الا . دون ان تسمح له بالاشتغال بما جبل عليه من حب للعلم ، وولع بالعكوف على الادب والفن ، وللالمام بنصيب اوفر مما جادت به قرائح العلماء والنابغين . ورجل هذا شانه لا يستقر به مقام ، مهما كان ذا عزة عليا ، ومنصب مرموق ذلك لانه دائما يحسب مركزه هذا دون اهليته وما تهوى اليه نفسه ، مهما يكن ضئيلا فى نظر الآخرين . فما كان من النويري الا ان ترك وظيفته فى بلاط السلطان حيث قال « ثم نبذتها وراء ظهري وعزمت على تركها فى سري دون جهري وسالت الله تعالى الغنية عنها ، وتفرغت اليه فيما هو خير منها ، ورغبت فى صناعة الادب وتعلقت باهدابها وانتظمت فى سلك اربابها . فرايت غرضي لا يتم بتلقيها من افواه الفضلاء شفاها وموردي منها لا يصفو ما لم اجرد العزم سفاها (4) .

ومن ثم حول النويري جهده لمطالعة الكتب بنفسه ، لكي يحقق غرضه من هذا العلم الذي يشتاق اليه ، والذي قد ضحى فى سبيله بوظيفته الحكومية

---

1) راجع لجمع القرءان وتدوينه :
ا ـ صحيح البخاري باب جمع القرآن .
ب ـ الترمذي ابواب التفسير .
ج ـ اتقان للسيوطي .
د ـ فتح الباري .
هـ ـ المصاحف لابن ابي داود . والكتب الاخرى باللغة الاردية كتبت حول الموضوع .
2) تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجي زيدان ـ ج 2 صفحة : 111 .
3) ظهر الاسلام لاحمد امين ج 4 صفحة : 191 .
4) مقدمة نهاية الارب ج 1 صفحة : 3 .

فقال « فامتطيت جواد المطالعة وركضت في ميدان المراجعة ، حيث ذل لي مركبها وصفا لي مشربها (1) .

وبما انه من الشخصيات التي نبغت في عصر كان يمر بانحلال ، ويعاني تدهورا في الانتاج العلمي ، لم تحفزه مطالعته هذه ، وانشغاله بالادب والعلم وما اتيح له الانشغال ، الى ان ينتج شيئا من فيض قريحته هو ، ويملي عليه عكوفه على المطالعة ، وتلقي مختلف العلوم والفنون . بل حاول ان يجرد من مطالعته كتابا لا ليسهم به في الانتاج العلمي اسهاما – كما يبدو لاول وهلة – وانما ليستانس به هو بنفسه، ويرجع اليه اذا اضطرت نفسه الى المراجعة فيقول ... « آثرت ان اجرد منها كتابا استانس به او ارجع اليه واعول فيما يعرض لي من المهمات عليه » (مقدمة نهاية الارب) .

وهنا يتبادر الى الذهن ان النويري انما بدأ عمله لجمع ما طالعه في الكتب في موسوعته ، ليس بارادة تاليف كتاب بالذات بالمعنى المفهوم ، وانما غرضه استيعاب ما طالعه وضبطه في دفتر ، لكي لا ينساه وان انفلت من ذاكرته شيء سهل عليه الرجوع اليه . وكذا لم يات بهذا الكتاب بعد فكر ودراسة وروية في الموضوع ، وانما جاء به عفوا كفكرة طارئة ، دون ان يحسب لها حسابا من قبل .

ولكنه يبدو لي ، أن النويري ، بعد ما كان قد اراد ان يضمن كتابه هذا وما يخاف انفلاته من ذاكرته، وبعد أن مضى فيه فعلا شوطا ، غير رايه لما وجد من اهمية فيما يطالعه ، وندرة ما وصلت اليه يداه من النفائس . فمن ثم وطد عزمه على جمع هذه النبذات ، وتسجيل ما يعجب به من المختارات ، لا ليستفيد بها هو وحده ، بل لتكون ذات فائدة للاخرين ايضا ومتعة لهم لكي يمكن لهم الرجوع اليها والالمام بها عند الحاجة . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، لكي يحفظ هذا التراث العظيم الذي كان قد اصبح عرضة للخطر على يد الحدثان . هذا التراث الذي اهمله المجتمع لانشغاله بأموره الخاصة ، التي فرضتها عليه الظروف ، من ضيق أسباب المعاش وتغير الاوضاع المالوفة وهذا العمل يتطلب الى جانب العقل الناضج والذوق السليم ، علما غزيرا ، ثم خطة مرسومة احكمت أصولها ، وترتيب وتهذيب روعي فيهما دقة الاختيار وحسن الانتخاب . فان القينا النظر على كتاب نهاية الارب من هذه الناحية ، وجدناه مستوفيا لهذه الشروط كلها وان خضنا في البحث في صفحات الكتاب، وجدناه موزعا على ابواب وفصول واقسام في صورة منتظمة لا يعمد اليها من يريد جمع اشياء ونبذات خيفة الافلات منه او النسيان ، ليرجع اليها اذا شاء الرجوع . فهذا الترتيب الكامل، لا يمكن ان ياتي عفوا، دون اعمال الفكر وتنسيق الخطة ، وبعد طول الممارسة وتدبر استغرق وقتا غير قصير . ليس هذا فحسب، بل ان هذه الظاهرة تتجلى بوضوح في المقدمات التي يستهل بها الابواب . فهي كلها انت على غرار مقدمات، تكتب بعد فكر وروية بالغين ولا ينطلق بها قلم يجمع لصاحبه مختارات من هنا وهناك ، في صورة «مذكرات» . اذ ان شانه غير شان المؤلف او الجامع. فقلما يوجد بها ترتيب محكم ، او تهذيب ملحوظ ، او اختيار منسق، او خطة مرسومة ونهج معين مضبوط. ثم ان النويري نفسه قد افصح عما كان ينويه من جمع كتابه هذا حيث يقول « وما أوردت فيه الا ما غلب على ظني ان **النفوس** تميل اليه وان **الخواطر** تشتمل عليه »(2)

فهذه العبارة تبرهن على ان النويري لم يبذل جهوده الجبارة هذه لاجل نفسه وحدها وانما للنفوس وللخواطر بالجمع لا المفرد أي نفوس القراء الى جانب نفسه طبعا . كما كان ينوي ان ياتي بكتاب يكون ذخرا للخلف ، وخزانة لما ورثناه من انتاج اسلافنا من العلماء والفقهاء والادباء النابغين .

---

1) مقدمة نهاية الارب ج : 1 صفحة : 3 .
راجع للنويري : 1 – مسالك الابصار في ممالك الامصار لفضل الله العمري .
2 – النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة ليوسف بن تغرى بردي الاتابكي ج 7 و 9 .
3 – حسن المحاضرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي ج : 1 .
4 – كشف الظنون للجلبي ج : 2 مادة (ن) .
5 – الطالع السعيد لجعفر بن ثعلب الادفوي حرف .
6 – تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج : 3 .
7 – الحركة الفكرية في العصرين الايوبي والمملوكي للدكتور عبد اللطيف حمزة .
2) مقدمة الكتاب صفحة : 26 .

ومع أن النويري « كان بطبيعته ميالا الى العلم والادب ، شغوفا به عكوفا عليه ، فقيها فاضلا ، مؤرخا بارعا ، له مشاركة جيدة فى علوم كثيرة » (1) ولكنه عند نقله هذه الكتاب لم يعتمد على نفسه وعلمه ومعرفته فحسب ، بل اظهر نفسه تابعا للعلماء السلف معتمدا على علمهم ، واثقا فى كفاءتهم ، ولذا اقتفى آثارهم فى هذا المضمار اذ يقول « ولو علمت أن فيه خطا لقبضت بناني ، وغضضت طرفي ، ولو خبرت طريق المعترض ، لعطفت عناني وثنيت عطفي ، ولكني تبعت فيه آثار الفضلاء قبلي ، وسلكت منهجهم فوصلت بحبالهم حبلي » (2) .

وبما ان النويري اقتفى آثارهم ، فطبيعي أن يتبرا من الاغلاط التي قد تبدو فى الكتاب ، فيحمل مسئوليتها هؤلاء العلماء بقوله « فان يكن اعتراض فعلي علاهم لا على العار » (3) ومن هنا يتضح ان النويري لم يرض لنفسه مركزا الا مركز الناقل الامين ، دون أن يستخدم فى المسائل رايه او يعمل علمه أو يعرض ما ينقله على محك ليعرف به جودة البضاعة من غشها ، وخاصة فى المسائل الدينية والامور المختلف فيها بين العلماء كما سنرى .

والسبب كما اسلفناه ، هو الانحلال الفكري والاضمحلال الذهني الذي طرأ على العلماء فى هذا العصر . ثم الفوضى وعدم الاستقرار الذي كان سائدا فى المجتمع الاسلامي . فلم يحفزهم علمهم الى الابداع والابتكار الذي يتطلب راحة البال واستقرار الاحوال . ومن ثم اقتصروا على جمعما وجدوا امامهم من الكتب، فى شتى الفنون والموضوعات . وذلك ما اشار اليه عميد الادب العربي الدكتور طه حسين فى احاديثه اذ قال : « **بان عصر المماليك يمتاز بانه عصر دوائر المعارف والموسوعات الادبية ، الفت فيه الكتب التي جمعت ما كان العرب والمسلمون قد اصدروه من الكتب** الكثيرة مثل **لسان العرب** (لابن منظور قبل النويري) و « مسالك الابصار » لفضل الله العمري ، و « صبح الاعشى » (للقلقشندي) ، الى ان ينتهي هذا الركب الى السيوطي « الذي » هو اكبر مظهر لهذا العصر (اي العصر المملوكي) فهو مؤلف كثير التاليف ، كثير الجمع ، قليل الابتكار « فلم يترك السيوطي بابا لفن لم يطرقه « حتى لقد عدت من تاليفه بثلاثمائة كتاب » (4) .

كانت تلك هي الظروف ، وهذه الاوضاع التي وضع فيها النويري كتابه الشهير « نهاية الارب فى فنون الادب » فى ثلاثين مجلدا ضخما . وعلى ترتيب حسن بديع يضاهي احسن ترتيب ممكن . أودعه كل مختار ومنتخب من علوم القدماء،ومن كل فن وموضوع، وبقدر ليس بضئيل .

قسم النويري موسوعته الى خمسة فنون ، يحتوي كل فن على خمسة ابواب . ضمنها جميع العلوم والفنون التي كانت معروفة الى عصره ، من الكلام حول السماء والآثار العلوية ، والارض والمعالم السفلية ، والانسان وما يتعلق به . من اشتقاقه من كلمة الانس ، الى ما يعرض له العوارض فى الدنيا ، وما يميل اليه من شعر وادب ، وما يرغب فيه من حب وهوى ونزعاته الى حياة مترفة قوامها الخمر والنساء، والسقاة والندمان ، ومجالس الغناء وغيرها . وما روى عنه من حكم وامثال ، وقصص واخبار . كما نقل عما وجده حول الحيوانات ، الصامت منها والناطق . وحول النباتات وما يتعلق بها من اصلها ومختلف اسمائها واوصافها . وما اعجب به فى التاريخ من تبدات ووقائع واحداث ، من مبدأ خلق ابينا آدم عليه السلام تتخلله اخبار يوم القيامة ونفخاته ، وخروج ياجوج وماجوج واهواله ، ونزول عيسى عليه السلام وآثاره ، الى اخبار ملوك الاصقاع وملوك الامم والطوائف ، ووقائع العرب فى الجاهلية ، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اخبار الخلفاء الراشدين ، فالدول التي تلتهم ، من اموية وعباسية وغيرها الى ان انتهى هذا الباب باخبار ولي نعمته ابي المظفر محمد بن قلاوون الصالحي ، سلطان مصر ، وهنا ينتهي الكتاب .

وقد يتساءل المرء لماذا سمى النويري كتابه هذا بـ « نهاية الارب فى فنون الادب » مع اننا نراه يضم اليه علوما وفنونا لا تتعلق بالادب فى شيء ، وانما هي علوم وفنون بذاتها لها اصولها وقواعدها . وانه لمن العجيب ان النويري ، مع غزارة علمه ، وعلو كعبه

---

1) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لتغري بردي ج 9 صفحة : 299 .
2) مقدمة الكتاب .
3) مقدمة الكتاب .
4) ظهر الاسلام لاحمد امين ، ج : 4 ، صفحة : 21

في التمييز بين فن وفن ، قد اباح لنفسه ان يطلق اسم الادب على جميع هذه الفنون التي تتغاير تغايرا كليا ؟ فليس من شك ، بأن الكتاب يحوي فنونا وعلوما لا تمت الى الادب بصلة كما قد يتبادر الى الذهن لاول وهلة . كما أن النويري لم يجهل ما بين فن وفن من فرق وتغاير ، ولكنه مع ذلك شملها كلها بالادب .

الادب ومفهومه

ان الادب ، وان دلت مادته منذ اقدم العصور العربية الاسلامية على رياضة النفس بالتعليم والتمرين على ما يستحسن من السيرة والاخلاف ، والتأثر بهذه الرياضة والاقتناع بها واكتساب الاخلاق الكريمة واصطناع السيرة الحميدة ، **تطور مفهومه في القرن الاول الهجري ، ليشمل التعليم ايضا** ، « فالمؤدب » كان يراد به الشخص الذي يتخذ التعليم صناعة ويكسب به رزقه ، « والادب » كل ما يلقيه المؤدب (المعلم) الى تلميذه من شعر وقصص واخبار وانساب ما هدا العلوم الدينية التي تتعلق بالقرءان والحديث النبوي الشريف .

فلما استهل القرن الثاني والثالث للهجرة ، حيث **نشأت علوم اللغة العربية** ، من صرف ونحو ولغة وبلاغة وغيرها ، انتعش مفهوم الادب ومراده « فاصبح **الادب يدل على الكلام الجيد من المنظوم والمنثور ، وما كان ينعل به ويفسره من الشرح والنقد والاخبار والانساب وعلوم العربية** » .

فهل لهذا الكلام الجيد من المنظوم والمنثور محك نختبر به جودته ؟ نعم ، فالكلام الجيد ، من النظم والنثر ، هو ذلك الذي « يحدث في نفس قارئه وسامعه لذة فنية ، سواء أكان هذا الكلام شعرا ونثرا . وليس كل ما ينظم أو ينثر يحدث في نفس القارىء أو السامع لذة فنية . ولذلك نضطر الى تقسيم الادب الى معنين مختلفين : أحدهما « الادب بمعناه الخاص » وهو الادب الفني الذي يجد القارىء أو السامع في نفسه لذة ومتعة لقرائته أو سماعه ، فيتلذذ به ويطرب . والثاني « الادب بمعناه العام » وهو الانتاج العقلي الذي يصدر في الكلام ويكتب في الكتب . فالقصيدة الرائعة والمقالة البارعة والخطبة المؤثرة والقصة الممتازة ، كل هذا أدب بالمعنى الخاص ، لاننا نقراه أو نسمعه فنجد فيه لذة فنية ، كاللذة التي نجدها حين نسمع غناء المغني وتوقيع الموسيقى ، وحين نرى الصورة الجميلة والتمثال البديع . فهو اذن يتصل بالذوق والحس والشعور ويمس ملكة تقدير الجمال في النفس. والكتاب في النحو او في الطبيعة او في الرياضة ادب بالمعنى العام لانه كلام يصور ما انتجه العقل الانساني من انواع المعرفة ، سواء احدث في النفس اثناء قرائته او سماعه هذه اللذة الفنية أم لم يحدثها .

على ان الادب ، او الاديب ، ليس من شانه ، ان يبحث في هذه العلوم من حيث هي ، فيتعمق فيها ، وانما ياخذ منها الشطر الذي يتعلق بالانسان ومحيطه وبيئته ويتناولها بالقدر الذي يحدث المتعة ويثير الحساسية في نفس القارىء او السامع . فانه ان تعمق فيها ، قد يفقد الحساسية والاثار في كلامه ، فيصبح انتاجه في الادب بالمعنى العام ولذلك اصاب الجاحظ عندما نادى « بأن **الادب « هو الاخذ من كل فن بطرف »** . وهذا الاخذ من كل فن بطرف ، يجب ان يكون بحيث يعبر عن معنى من معاني الحياة باسلوب جميل . **فلا بد لعد الشيء ادبا من ركنين : معان تثير العاطفة والفاظ جميلة** اديت بها المعنى ... كذلك لا بد من **صياغة وتعبير جميل** . وذلك هو مفهوم الادب في عصرنا هذا .

فان القينا النظر على ما جعله النويري في كتابه من نبذات واقتباسات في ضوء هذا التعريف للادب ، نجده يفي به تماما بل يزيد ، اذ انه لم يتعمق في العلوم والفنون عند النقل والاقتباس ، وانما أخذ منها تلك العينات واللقطات التي تتمتع بها النفس ويتاثر بها الحس وتتلذذ بها المشاعر ، وكل ذلك في **صياغة وتعبير جميل مع الفاظ جميلة** . وبدا افاء بشرط « الاخذ من كل فن بطرف » فجاء فيه ، من ناحية ، **الكلام الجيد من المنثور والمنظوم** ، كما اشرنا اليه في الصفحات السابقة ، ومن ناحية اخرى زاد عليه ، فجاء بعلوم وفنون تعتبر من الادب بالمعنى العام ، مثل الكلام على النحو والصرف والبلاغة والتاريخ والجغرافية والسيرة والعلوم الطبيعية وغيرها . وكذا فانه شمل معنى الادب بمفهوميه ، المفهوم الخاص منه والعام في وقت واحد .

فاننا اذا لم ناخذ هذا التعريف بعين الاعتبار ، فقد نضطر الى شطب بعض الكتب الهامة ، وانتاج بعض الفطاحل من القدماء من عداد الادب ، ولو اننا ما زلنا نعتبرها من امهات الكتب الادبية والاعمال الرائعة التي خضعت امامها وما تزال تخضع ، هامات الكبار من العلماء والادباء في كل عصر ومصر . واعني

به (الكامل للمبرد) و (البيان والتبيين للجاحظ) و (كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة) و (طبقات الشعراء) (لمحمد بن سلام الجمحي) وغيرها من الانتاج الادبي الخصب الممتع ، فهذه الكتب جميعها ، تشمل الاخبار والانساب والقصص والسيرة والتاريخ والاساطير . ومع هذا فان احدا لا ينكر انها ليست من الكتب الادبية ، وهذا الانتاج ، ليس من الانتاج الادبي. فلماذا اذن نتردد في اعتبار كتاب « نهاية الارب » للنويري في عداد الادب وحيطته ، والحال ان كتاب النويري يحيط بمفهوم الادب بالمعنيين . !

وثمة ناحية جديدة بالانتباه اليها وهي ان النويري لم يدون كتابه هذا باعتباره كتابا في فن خاص او علم يبحث في ناحية من فن معلوم معين ، وانما حاول جمع ما ادته مطالعته من العلوم والفنون ، في كتاب له اجزاء متسلسلة متشابكة ، يجعلها مرجعا لكل هذه الفنون . ثم ان معظم الابواب والاقسام التي يشملها الكتاب يضمن الادب بالمعنى المفهوم منه في هذا العصر. اما الابواب الباقية منه ، فانها ايضا لا تخلو من نبذات الادب خلوا تاما . فخذ مثلا « باب السماء » تجد فيه من الاشعار التي قالتها الشعراء حول السماء والنجوم والفلك وكلها في منتهى الروعة والجمال ، تترنح لها المشاعر والاحاسيس وتطرب لها القلوب . مما يجعل من الباب جزءا من الادب له قيمته ووزنه من هذه الناحية . وكذلك حين ينقل لنا صفحات الحيوانات على مختلف انواعها (1) فانه يأتي في هذا الصدد ، بنخبة مختارة من الاشعار قالتها الشعراء حول هذه **الحيوانات** ، مثل قول بعض الشعراء على لسان اعرابي يصف الاسد يقول :

عبوس شموس مصلخد مكابر
جري على الاقران للقرن قاهر

لتعقبه اقوال من الشعراء الآخرين ، مثل ابي الطيب المتنبي وعبد الجبار بن حمديس وبشر بن عوانة وكشاجم وغيره ، وكلها مما تعد من احسن ما يقال في الموضوع . وهكذا في سائر الحيوانات : **من كلب ونمر وفهد وحمار وبغال وابل وفيل . وما تدب منها مثل الافاعي والعقارب والضب والحرباء حتى الفيران والجرذان** . ثم عمد الى **الطيور البغاث منها والمقلات والنزور ، وما منها الليلية والنهارية وغيرها** من مختلف الاقسام والانواع ، التي قيلت فيها الشعر (2) هذا من ناحية وصف الحيوانات . فاذا فرغ من نقل الاشعار الوصفية ، بدأ ينقل من الاشعار تلك التي فيها ذم للحيوانات ، وردت على سبيل الهجو « **كطرائف في ذم الخيل والحمير والبغال**» اتى فيها باشعار تهجو الخيول لهزالها وضعفها وعدم سيرها او عدم تحملها المشاق وغيرها من المعائب التي تهجر من اجلها الخيول والبغال والحمير . (3) وجميع هذه الاشعار من شعر جزل رائع .

فان انتقلنا الى الفن الثالث والرابع والخامس(3) نجدها كلها توشك ان تكون ادبا خالصا . « فقد اشتمل الفن الخامس منها ـ بنوع خاص ـ على كثير من الامثال وعلى كثير من اشعارهم التي تجري مجرى الامثال وذلك من لدن امرىء القيس الى العصر الذي عاش فيه النويري » (4) وهكذا نجد النويري قد اتى في جميع الابواب والفنون بطائفة من الاشعار ، في غاية من الروعة والجمال ، مما تضيف اليها من الصبغة الادبية قدرا يطغى على الفن الذي تخضع هذه المادة اليه وتشتمل هذه النبذة عليه . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ان النويري لم يفكر في وضع كتابه هذا في الادب بالمعنى المخصوص الذي حدده النقاد والعلماء قبل القرن الثالث الهجري . بل وسع نطاقه وجعله الادب بالمعنى العام الذي يشمل كل شيء بحيث **يأخذ من كل فن بطرف وذلك على غرار التأليف الذي كان شائعا في مصر في ذلك العصر** .

ومهما يكن من شيء ، سواء نظرنا الى الكتاب بمفهوم الادب قديما او بمفهومه الحديث ، فاننا لن نجد الكتاب خارجا من نطاقه الادبي في اي شيء . وعلى كل حال فانه يتوجب ان يعزب عن البال ان «**النهاية موسوعة**» قبل كل شيء ، ليس من شانها ان تقتصر على فن دون فن فلها رسالة اكثر اهمية وخطورة منه ، وهو **أن يكون سجلا حافلا لكل شيء على وجه الارض** . وبما ان صاحبها جبل على حبه للادب ، اتى بهذه الاشياء كلها

---

1) نهاية الارب ، ج : 10 ، صفحة 65 .
2) نهاية ، ج : 11 .
3) نفس المرجع .
4) الحركة الفكرية في العصرين الايوبي والمملوكي صفحة 320 .

باطار من الادب بحيث لا نتعدى الحقيقة اذا ما قلنا ان كتابه **موسوعة ادبية** .

واننا فى قولنا هذا، انما نتتبع آثار من سبقنا من العلماء الكبار ممن اعقبوه . فلقد وصفوا كتابه هذا بانه عمل ادبي ، عول عليه الادباء . فيقول ابن فضل الله العمري صاحب « مسالك الابصار فى ممالك الامصار » المتوفى سنة 748 هـ « كان الباعث عليها (اى نقل الكتب القديمة وجمع الفنون فى سجل حافل) كما قلنا هو **جمع المعارف الانسانية كلها فى اطار من الادب مرة كما فى نهاية الارب للنويري ، ومن الجغرافيا كما فى كتاب الابصار ، ومن الكتابة الديوانية مرة ثالثة كما فى كتاب صبح الاعشى** » (1) .

ويقول جمال الدين يوسف بن تغري بردي الاتابكي فى كتابه « النجوم الزاهرة فى اخبار ملوك مصر والقاهرة » الجزء التاسع ما نصه : « ... وكان يكتب فى كل يوم ثلاث كراريس . وتاريخه سماه « منتهى الارب فى علم الادب » فى ثلاثين مجلدا ، رايته وانتقيته ونقلت منه بعض شىء فى هذا التاريخ وغيره ». وفى عصرنا هذا يقول محمود رزق سليم فى كتابه « عصر سلاطين المماليك » « ... ويعتبر (اى نهاية الارب) **احد الكتب الجامعة الهامة ، ذات المواد العامة** وهو عمدة بين الكتب كذلك ، اعتمد عليه كثير من المؤرخين والادباء قديما وحديثا . (2)

تلك كلمات اوردناها عن المؤلف ، وعن الاوضاع التي الف فيها كتابه ، كما قلنا شيئا عن الكتاب نفسه : كل ذلك بشىء من الايجاز كثير . والان نحاول القاء نظرة فى شىء من التفصيل ، على ما اتخذه النويري من منهج لوضع كتابه هذا ، الذي اصبح فى العصر الحديث ، ولم يزل منذ الزمن القديم ، من **اهم المراجع لما كتبه الاوائل فى شتى الفنون والعلوم . والذي له الفضل الاكبر فى حفظ ما تركه لنا اسلافنا من تراث علمي عظيم .**

يستهل النويري الابواب والفنون عادة ، بمقدمة يكتبها هو بنفسه احيانا ، او ينقلها من الكتاب الذي يورد منه ماموماته حول هذا الباب او الفن فيذكر فى المقدمة ما حواه هذا الباب او الفن من موضوع، وهذا الموضوع من اقسام وابواب ، وما لكل قسم فى مادة خاصة ولكل فصل من علم معين .

ولناخذ على سبيل المثال مقدمته حول « الفن الاول » فى السماء والآثار العلوية والارض والمعالم السفلية » فقد كتب هذه المقدمة بنفسه يشرح فيها ما يحتوي هذا الفن من موضوعات وفصول واقسام فيقول :

« قد اوردت فى هذا الفن نبذة من **وصف السماء**، التي هي قبلة الدعاء وباب الرجاء، **والكواكب السيارات**، ذوات السنا والسناء، **والملائكة** الذين هم اولو اجنحة، مثنى وثلاث ورباع ، والسحائب التي تجود بوبلها ، فتعدل فى قسمها بين السهل والبقاع ، **والرعد** الذي ان دنت بحثها ، **والريح** الذي ان اجتمعت ببثها ، **والبرق** الذي شبه ببنان الحاسب والكف الخضيب والثلج الذي خلع على الارض رداء المشيب ، **وقوس السحاب** الذي تنكبه الجو فافرغ عليه مصبغات الحلل، ورمى الجدب ببنادق البرد فتباشرت بالخصب اهل الحلل ، **والنيران** وعبادها وعددها، **والسنة** وفصولها، **والاعياد** والمواسم ومتخذيها ، **والارض والجبال** والبراري والرمال ، **والجزائر** والبحار **والمياه** وامدادها ومددها ، **والليالي والايام والشهور والاعوام، والعيون والانهار ، وطبائع البلاد** واخلاق من سكنها من العباد ، **والمباني** والمعاقل **والقصور والمنازل** ... »

... وجعلته خمسة اقسام يستدل بها عليه ويتوصل من ابوابها اليه » (3) .

فنلاحظ ان هذه المقدمة تحتوي على جميع الابواب والفصول والمواد التي سيأتي بها فى هذا الفن. وذلك لكي يسهل على القارىء معرفة محتوياته بالقاء نظرة خاطفة على المقدمة . فالكلمات المكتوبة بالخط الكثيف تبدي بان هذا الفن تناول فى بحث هذه المواد، فى باب منفرد وبتفصيل واف .

فلناخذ « وصف السماء » مثلا . نجد ان النويري بداه بفصل يتعلق « فى مبدا خلق السماء » وبرهن عليه بآية قرءانية تقول « ا انتم اشد خلقا ام السماء ، بناها رفع سمكها فسواها واغطش ليلها واخرج ضحاها » ، ثم ذكر بان السماء تذكر وتؤنث

---

1) مسالك الابصار فى ممالك الامصار مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم 3003 .
2) الجزء التاسع ، صفحة : 299 .
3) نهاية ، ج : 1 ، صفحة : 67 .

ايضا . فشاهد التذكير قوله عز وجل « السماء منفطر به » ، وقول الشاعر :

فلو رفع السماء اليه قومنا
لحقنا بالسماء مع السحاب

وشاهد التانيث قوله تبارك وتعالى « اذا السماء انفطرت » . وقول الشاعر :

يا رب ، رب الناس فى سمائه .

ثم اتى باسماء مختلفة للسماء اطلقتها العرب عليها (1) ثم تحدث عن سبب حدوثها . ليبحث فى باب ثان من هيئتها ، واسهب فيه اسهابا حول الموضوع من الاستدلال بالقرءان الكريم الى الاحاديث النبوية . ثم اتى بما ضربت من الامثال حول السماء وما انشد الشعراء من الاشعار فى وصفها والتشبيه بها . ومعظمهم اسلاميون . وذلك لان الجاهليين يندر عندهم وصف السماء والتشبيه الرائع بها فى كلامهم . ولقد ساق الامثلة على التشبيه بالسماء من اقوال مختلف الشعراء منهم عبد الله بن المعتز حيث يقول :

كان سماءنا لما تجلت
خلال نجومها عند الصباح

رياض بنفسج خضل نداه
تفتح بينه نور الاقاح

وفى النجوم قول ظافر الحداد :

كان نجوم الليل لما تبلجت
توقد جمر فى خلال رماد

حكى فوق ممتد المجرة شكلها
فواقع تطفو فوق لجة وادي

ومما قيل فى الفلك ، قول ابى العلا المعري :

يا ليت شعري ، وهل ليت بنافعه
ما ذا يراك ، او ما انت يا فلك

واحسن ما اورد فى هذا الصدد قول ابي عبادة البحتري :

اناة ايها الفلك المدار
انهب ما تصرف ام خيار

ستبلى مثل ما نبلى وتفنى
كما نفنى ويؤخذ منك ثار

وبعد الاستدلال بالاشعار ، يبدا الباب الاخر ، وينهج فيه نفس هذا المنهج حتى ياتي عليه .

وقد ياتي احيانا بـ « ذكر الشيء على طريق الذم» مثلا فصله الذي يقول فيه « ذكر شيء مما قيل فى الشمس على طريق الذم » ، واورد فيه بعض الاشعار للشعراء يجهلون الشمس او يذكرونها بطريق الذم كقول ابن سناء الملك :

لا كانت الشمس ، فكم اصدات
صفحة خد كالحسام الصقيل

او «ذكر القمر على طريق الذم» كقول ابن الرومي:

رب عرض منزه عن قبيح
منسته معرضات الهجاء (الابيات)

وهكذا ياتي بالاشعار لفحول الشعراء يهجون بها الشيء المعين او يعيبونه باقوالهم .

ومن المقدمات التي كتبها النويري بنفسه على هذا النحو ، مقدمته على الانساب ، حيث بداها قائلا « يقول الله سبحانه وتعالى « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ...» ومعرفة انساب الامم مما افتخرت به العرب على العجم لانها احترزت على معرفة نسبها وتمسكت بحفيظ حسبها وعرفت جماهير قومها وشعوبها ... الخ (2)

فهذه المقدمة اوضح فيها النويري بايجاز ، ما يحتوي عليه هذا الباب من الموضوعات والمواد والفصول . ثم سار نفس المنهج الذي سبق ذكره فى نقل ما ضمن هذا الباب .

واحيانا يضيف النويري فى مقدماته الى الآيات القرءانية ، بعض الاحاديث ايضا التي تطابق الموضوع. مثلا مقدمته على « القسم الثاني من الفن الثاني — فى الامثال المشهورة » . فبعد ان بين الموضوعات التي اوردها فى هذا القسم يقول فى الباب الاول — (فى الامثال) ضرب الله عز وجل الامثال فى كتابه العزيز فى آى كثيرة فقال تعالى : « يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » وتكرر ذكر الامثال . ثم يورد حديثا

---

1) ومنها : الجرباء والخلقاء وبرقع والرقيع وغيرها
2) نهاية الارب ، ج : 2 ، صفحة : 276 .

يناسب هذا الباب حيث يقول : « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الله صراطا مستقيما ، وعلى جنبي الصراط أبواب مفتحة وعلى الابواب ستور مرخاة ، وعلى راس الصراط داع يقول ادخلوا الصراط ولا تعرجوا » (1) ثم **فسر الكلمات** التي وردت في هذا الحديث . وبعد ذلك اخذ في نقله عن الميداني من الاقوال حول الامثال وبيان ذلك . وكتابه المنقول منه الاقوال هو « مجمع الامثال » .

والعجيب أن النويري مع جلالة قدره وعلو كعبه في العلوم الدينية ايضا فقد وصفه معاصروه بانه فقيه بارع ، لا يتحاشى الاستدلال بالاحاديث الموضوعة ايضا. وانني بعد الدراسة والاستقصاء للاحاديث التي اوردها في كتابه بلغت الى هذه النتيجة وهي انه انما ياتي بمثل هذه الاحاديث الموضوعة او الضيقة ويستدل بها ، في اماكن ومسائل لا تتصل باي ركن من اركان الاسلام ، وذلك ان العلماء قد اجازوا الاستدلال بالاحاديث الموضوعة والضعيفة ، طالما لم تكن تنافي نصا قطعيا من القرءان الكريم او مسالة متفقا عليها باجماع الامة ، وبخاصة في المسائل التي لا صلة لها بالدين ، مثل الادب ومثله من العلوم الاخرى .

وقديما اخذ على الامام الغزالي وبعض العلماء الاخرين الاستدلال بالاحاديث الموضوعة والضعيفة في كتبهم . وقد اجيب عنهم ، انهم انما جاءوا بمثل هذه الاحاديث في كتبهم في مواضع ومسائل وامور لا تمس بالدين والمعتقدات الاسلامية المتفق عليها بسوء ، ابطالا او الغاء . بل جاءوا بمثل هذه الاحاديث في مواضع الذكر والعظمة والعبرة ، لكي يدعموا اقوالهم بقول النبي ولو كان ضعيفا . فلم ير العلماء باسا في الاستدلال بمثل هذه الاحاديث في موضع النصيحة والعظة والتذكير ، فهي بمثابة « الحكمة ضالة المؤمن ، فاينما وجدها فهو احق بالانتفاع منها والاستفادة بها.

— ◆ —

وبعد المقدمات التي يستهل بها النويري الفنون والفصول يبدا بنقل ما يطيب له من الكتب الهامة . وطريقته فيه انه يطالع الكتاب بدقة وتدبر وتفكر ، ثم يختار العينات والنبذات التي يفضلها على غيرها حسب الخطة التي قد اعدها من قبل ، ثم ينقلها في كتابه .

وطريقته في النقل انه احيانا يذكر المرجع او الكتاب الذي نقل عنه العينة او العبارة او المسالة . واكثر الاحيان لا يذكره . كما نجده يذكر المرجع بصراحة تامة حينا، ويشير اليه اشارة خفيفة حينا آخر.

وهنا نقف وقفة قصيرة ، لنذكر نبذة من الفصول التي اخذها من مختلف الكتب ولكنه لم يذكرها على الاطلاق ، لا اشارة ولا صراحة .

قال النويري : « واما ما ورد في ذم الشيب » قال قيس بن عاصم رحمة الله عليه : الشيب خطام المنية . وقال غيره : « الشيب نذير الموت »

وقال : « قد ورد في بعض التفاسير في قوله تبارك وتعالى « وجاءكم نذير » قيل هو الشيب .

الى قول عبد الملك بن مروان : شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن .

اورد النويري هذه المقتطفات من العقد الفريد لابن عبد ربه (الجزء الثاني) ولم يذكر هذا المرجع على الاطلاق .

وهناك امثلة كثيرة نقل النويري الفصول والابواب من العقد الفريد باجزائه دون ان يذكر المرجع او يشير اليه .

ومن امثلة عدم ذكر المرجع ما نقله النويري في « فصل في الوزارة و اصحاب الملك » في (نهاية الارب ج 6 ص 92) فاكثره منقول من كتاب «قوانين الوزارة» للماوردي . اما « وصايا اصحاب السلطان » في نفس الجزء السابق ، فانها ماخوذة من « الادب الكبير » لابن المقفع .

وكذلك فصل « في وصف اعضاء الانسان » وفصل « ظهور الشيب » فانهما منقول لفظا وحرفا من « فقه اللغة للثعالبي . » وكذلك الفصول « في اسماء شعر الانسان من فوق لتحت » و « مما قيل في الحواجب » « وما قيل في العيون ووصفها » و « فصل ترتيب الصمم » وغيرها من فصول كثيرة ، منقولة من كتاب فقه اللغة للثعالبي دون الاشارة اليه .

وقد قال « الوزير ابو المغيرة ابن حزم عندما عرضت عليه رسالة بديع الزمان في الغلام الذي خطب اليه وده بعد أن علم قال :

---

1) نهاية الارب ، ج : 3 ، صفحة : 2

« ورد كتابك ينشد ضالة ودنا ويرقع خلـــق عهدنا ويطلب ما افاءته جريرتك الينا وذهبت به جنايتك علينا ايام غضك ناضر ، وبدرك زاهر لا نجد رســولا اليك ، غير لحظة تخرق حجاب الدموع ... الـخ » (نهاية ج 2 ص 87) .

نقل النويري هذه الرسالة بتمامها ضمن فصل « مما وصف به العذار على طريق الذم » في الفن الثاني ـ الباب الاول . ولكنه لم يذكر او يشر الى انه نقلهـا من كتاب « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » لابن بسام ، الجزء الاول صفحة 117 (1) .

ثم ان النويري اورد الكتاب المشهور الذي كتبه سيدنا علي رضي الله عنه الى مالك بن الحارث الاشتر عندما ولاه مصر ، والذي يتضمن نصائح واصولا غالية الثمن ، (نهاية ج 6 ص 19) نقله من كتـاب « نهـج البلاغة » للسيد الشريف الرضى (الجزء الثاني ص 79) دون ان يشير الى هذا الكتاب

— ◆ —

وهناك فصول وابواب ، يذكر النويري مراجعها. وذكرها في مثل هذه الابواب ينحصر في طريقتين :

احداهما : ان يكتفي بذكر اسم المؤلف دون ان يذكر كتابه الذي نقل منه العين . ومثاله حين يقول : « وروى ابو الفرج عن احمد بن عبيد الله بن عمار قال: كنا عند ابي العباس المبرد يوما،وعنده فتى من ولد ابي البحتري وهب بن امرد حسن الوجه » ثم الحكاية التي اوردها في ص 229 من النهايـة ج 4 . اورد هـــذه الحكاية نقلا عن الاغاني ، ولكنه لم يذكر اسم الكتـاب بل اكتفى بذكر المؤلف .

وقد نقل النويري اشياء كثيرة من كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني وبخاصة حياة واخبار الكرام (نهاية ج 3 ص 211) واخبار المغنيين الذين نقلوا الغناء من الفارسية الى العربية ، واخبار وحياة اشهر المغنيين ، وحكايات القيان واول من غنى من النســاء ، وحيـاة اولاد الخلفاء ومن كان منهم يجيد او يميل الى الغناء وقرض الشعر مثل ابراهيم المهدي وعلية بنت المهدي وابو عيسى وابن المعتز وعائشة بنت طلحة وغيرهم .

على ان النويري لا ينقل من الاغاني كل ما ورد فيه ، بل يقتصر على الذي يطيب له ويصح عنده ، وما يطابق خطته من الموضوع . اما باقي العينات فانـه يحذفها عن وعي وادراك وبصيرة وقصد .

ومن امثله اكتفاء النويري على ذكر اسم واضع الكتاب دون الكتاب نفسه ، ما نقلـه عن ابن المقفـع حيث قال « وقال ابن المقفع « عود نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم ... الخ »

ثم ان النويري لايهتم احيانا بذكر الاسم الكامل للمؤلف او الجامع، فيكتفي بذكره اما ناقصا او باختصار كبير يصعب على الباحث معرفـة اسمـه الكامـل ؛ وخاصة اذا كان للاسم المذكور لقب وكنية يعرف بها .

ونلاحظ ، ونحن نبحث في الكتاب ، أن النويري، الى جانب اقتصاره على ذكر اسم المصنف ، او كنيته او لقبه باختصار شديد او اهمال ذكر اسم المؤلف بـاتا او الكتب التي ينقل منها ، ان هناك شواهد تدل على ان النويري يعترف بصدر رحب وبصراحة تامة ؛ بان نقل هذا الفصل او الباب من كتاب يسميه ، ولمصنف بنعته نعتا واضحا . وذلك عند نقله من الميداني مثلا ، حيث يقول « ومن امثال العرب ما نقلـه مـن كتـاب « الامثال » للميداني .

وكذلك صرح بنقله من كتاب ابي البركات الجواني النسابة ، في الباب الرابع ، في الانساب . ويعترف بنقله منه قائلا « وقد وقفت على المقدمة التي وضعها الشريف ابو البركات الجوانـي ، فرغبـت له علمـا ونصبت له الى المعالي سلما » . ويبدو انه قرأ معظم الكتب الموجودة عصرئذ في هذا الفن ، ثم بعد ذلك اختار كتاب الجواني ، لانه « اتقـن اصولهـا وحـرر فصولها واورد فيها من الانساب ما ينتفع به اللبيب ويستغني بوجوده الكاتب الاريب » واكثر منه صراحة قوله « على الشريف الجواني العمدة فيمـا اوردتـه والعهدة فيما نقلته ، فمن تاليفه نقلت وعلى مقالتـه اعتمدت » (2) ثم بدأ ينقل منه بقولـه « قال السـيد

1) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، لابن بسام ـ مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم 2348 ـ ادب
2) نهايـة الارب ج 2 صفحة 276 .

الشريف نقيب النقباء ابو البركات بن اسعد علي بن معمر الحسيني الجواني النسابة رحمه الله : ان جميع ما بنت عليه العرب في نسبها اركانها ، واسست عليه بنيانها عشر طبقات » . الا ان النويري غير ترتيب الجواني ، « وسرد النسب من اصله اى آدم عليه السلام » فالجواني بداه بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وبصفته الناقل المحض ، يعمد النويري الى بعض النبذات من كتاب انتخبه لموضوعه ، فينقلها لفظا وحرفا دون التصرف فيها بكلية . ومثال ذلك ما اورده من كتاب « ادب الكتاب » لابى بكر محمد بن يحيى الصولي (النهاية الجزء السابع صفحة 14) في فصل « وما قيل في حسن الخط وجودة الكتابة ومدح الكتاب الكتاب » حيث يقول « سئل بعض الكتاب عن الخط متى يستحق ان يوصف بالجودة ؟ قال : « اذا اعتدلت اقسامه وطالت الفه ولامه واستقامت سطوره ... » فلقد وردت هذه الكلمات بعينها في كتاب « ادب الكتاب » للصولي (صفحة 50) لفظا وحرفا .

ومن امثلته « رسالة الثقيفة » التي بعث بها ابو بكر الصديق الى علي رضي الله عنه عند توليته الخلافة . نقل النويري هذه الرسالة من « رسائل ابى حيان التوحيدي » . ولقد اتى بها لفظا وحرفا دون ان يعلق عليها بحرف ، مع العلم ان هذه الرسالة مشكوك فيها ومطعون عليها . (1)

وانما يعمل النويري كل هذا حسب خطة مرسومة محكمة التنسيق يضعها بعد فكر وروية وتدبر . فلقد راعى في تاليفه هذا ، ان يضع الابواب والفصول على ترتيب حسن منتظم ، حيث يسهل تناوله والاستفادة منه . فلم يكن يجمع كل رطب ويابس قراه او وصلت اليه يداه ، دون ان يفكر فيه من ناحية جودته والاستفادة منه والافادة وتقسيم فنه . حتى لا يدخل شيء في شيء لا يوافقه ، او فن في فن يغايره ، كما فعله الجاحظ في معظم كتبه . بل كان **منهج النويري فيه ، منهجا يضاهي منهج العصر الحديث في توظيف التاليف وتنسيقه** . فكان ينتخب فنا خاصا من الفنون ليطالعه ، فيجمع الكتب المتعلقة به اولا ، ثم يطالعها مطالعة دقيقة وافية ، وبعد ذلك يضع لهذا الباب او الفن خطة مرسومة واضحة دقيقة . يثبت فيها ترتيب كتابته ، وكيفية نقله من هذا الكتاب ، حيث ياتي بكل نبذة في محلها ويثبتها حيث يقتضي المقام اثباتها . فيبدا نقله مثلا من كتاب ، ويستمر فيه الى كلام او بحث خاص يحب نقله ، ثم يترك هذا الكتاب ليواصل نقله من كتاب آخر انتخب فصلا منه لنقله في كتابه وفي محل خاص منه . وهكذا بعد ما ينتهي من نقله من هذا الكتاب الى البحث او الفصل الذي يريده ، ينقل الى كتاب ثالث ، ليستانف نقله منه الى ان ينتهي الباب من كتابه .

وخير مثال لطريقته هذه ، ما اورده في القسم الخامس « في الملك وما يشترط فيه وما يحتاج اليه وما يجب له على الرعية ، وما يجب للرعية عليه ، ويتصل به ذكر الوزراء وقادة الجيوش واوصاف السلاح وولاة المناصب الدينية ، وفيه اربعة عشر بابا » .

وثمة ظاهرة اخرى ، جديرة بالذكر ، وهي ان النويري للغرض المنشود من وضع خطته يتصرف احيانا في النقل ايضا . وذلك ما نلاحظه عند نقله شروط الامامة من الاحكام السلطانية للماوردي . اذ ان الماوردي ذكر شروط الامامة بسبعة شروط ، اما النويري فقد جعلها ثمانية بجعل الذكورية والبلوغ ، صفتين منفردتين ، بحجة قول الله عز وجل وقول النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم انه لاجل هذه الخطة المرسومة ، يعمد فيغير احيانا ترتيب الكتاب المنقول منه ، عند ما ينقله في كتابه ، لكي ياتي حسب ما يشاء منه في خطته . ويطابق الاصول التي وضعها لنقله . وخير مثال لهذه الظاهرة ما نجده عند نقله من كتاب « اصول الاحساب وفصول الانساب » للجواني النسابة فتراه اورد كل شيء في قسم الانساب من هذا الكتاب ، الا انه غير ترتيبه حتى جعله ظهرا لبطن .

فقد سرد الجواني النسب من ابينا آدم عليه السلام وانتهى به الى نبينا صلى الله عليه وسلم ، فنسب بني هاشم الذي اورده الجواني في اول كتابه ، نقله النويري في آخر كتابه هذا الباب . (2)

---

1) جمع الدكتور ابراهيم الكيلاني هذه الرسائل ونشرها في دمشق عام 1951 .
2) اصول الاحساب صفحة 14 ونهاية ج 2 صفحة 360 .

وفى الكتاب امثلة كثيرة تدل على ان النويري يغير ترتيب المنصف ، وينقل نصه بترتيب وخطة وضعها هو . ومنها انه ما نقل من كتاب « ذم الهوى » لابن الجوزي (1) حوالي عشرين بابا فى « باب الحب والهوى والعشق والغزل وغيره » الا انه قدم بابا واخر آخر ، حسب رغبته وخطته .

وكان النويري الى جانب اختصاره للابواب والفصول من الكتب يختصر المطولة . فيورد منها ما يظنه انفع واكثر فائدة . فمن الكتب التي اختصرها كتاب « مجمع الامثال » للميداني بجزئيه .

فقد اودع الميداني كتابه «مجمع الامثال» حوالي ستة آلاف مثل ونيف (2) وطريقته فى نقل مثل ، هو انه**ياتي بالمثل ، ثم يسرد سبب اطلاق هذا المثل وقصته ، والشخصيات المتعلقة بها ، ومختلف الروايات والاقاويل التي يتناقلها المؤرخون والادباء حوله . ثم يورد اقوال النحاة والمتضلعين فى اللغة حول الكلمة** ان كان هناك اختلاف فى نطقها ، او تصريفها او فصاحتها ، وكل ما يتعلق من الناحية النحوية والصرفية واللغوية ، ويسهب فيه اسهابا ملحوظا .

اما النويري فانه عادة ينتخب من الامثال ، السائرة او كثيرة الاستعمال فى الادب او الكتب المتداولة ، او الامثال التي وردت بكثرة فى الاشعار ، او التي خفيفة على اللسان غزيرة فى المعنى ، دقيقة فى التعبير ، ثم يسرد المعنى الذي يستعمل فيه هذا المثل ، ولا يهتم بتحقيق الميداني فيما اورده من الكلام حول تصريف الكلمة وصحتها من الناحية اللغوية والادبية ، ومختلف الاقوال فى هذا الصدد . وان اخذ منها شيئا ، فتلك التي لا مندوحة له منها ، لفهم المثل وفهم مدلوله .

فلنر مثلا « ان العوان لا تعلم الخمرة » فلقد قال الميداني ، وهو يصف مختلف الاقوال حول كلمة « العوان » قال الكسائي : لم نسمع فى العوان بمصدر ولا فعل . قال الفراء يقال : عونت تعوينا وهي عوان بينة التعوين والخمرة من الاختمار كالجلسة من الجلوس ، اسم للهيئة والحال ، اي انها لا تحتاج الى تعليم الاختمار ، يضرب « للرجل المجرب » (3) .

اما النويري فقد اورد المثل وحذف ما قيل حوله من الاختلاف فى كلمة العوان وتشريح معنى الاختمار ، لانه ليس يكتب كتابا فى علم النحو او اللغة او المعاني ، وانما ياتي بما يستفاد به من هذا المثل وهو مدلوله فاكتفى بنقل مضرب المثل وموقعه (4) .

وكذلك يحذف النويري بعض الاحيان ، ما يورده الميداني من تفسيرات لغوية لبعض الكلمات الواردة فى المثل .

ثم ان النويري عند نقله لامثال من الميداني لا يهتم بالقصص التي اوردها حول الامثال . والسبب فيه هو ان النويري يقصد بنقل هذه الامثال ابرز معالم الادب وخفاياه والامثال احدى دعائمه . ولذلك نراه يقتصر على الحد ، سواء من القصة او شرح الكلمة . يرى فيه ان المثل اصبح واضحا بحيث لا يصعب فهمه . فان راى بان المثل غامض لا يمكن فهمه بدون اتيان القصة المشهورة حوله ، فانه ياتي بالقصة تاركا الحشو والزوائد ، مقتصرا على لبها وخلاصتها .

وكذلك اختصر النويري القصص والحكايات التي اوردها صاحب الاغاني عند الكلام عن المغنيين والشعراء واصحاب الظرف الفكاهة مثل ابن سريج ومعبد وابن محرز وغيرهم . فقد اتى فى كتابه ، من هذه القصص والحكايات ، تلك التي تفيد غرضه وتستسيغ نهجه وتلائم خطته ، من غير الانغماس فى تطويل ممل ، والاخذ من المينات والاقتباسات التي قد تكون موضع الشك والشبهة تاريخيا . فقد تكون لا تعتمد على برهان تاريخي او حجة لا تقبل الشك والريبة (5) .

وهناك امثلة يحذف النويري فيها القصة او الحديث كله ، ويكتفي بذكر موقع استعمال المثل

---

1) كتاب « ذم الهوى » لابن جوزي (ابو الفرج) مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم 286 ــ ادب تيمور (فى مجلدين) .
2) مقدمة مجمع الامثال صفحة 5 .
3) مجمع الامثال للميداني ج 1 صفحة 16 .
4) نهاية ج 3 صفحة 9 .
5) راجع الاغاني للاصفهاني ، الجزء الاول صفحة 101 فما بعد . ونهاية الارب الجزء الثاني صفحة 225 فما بعد ، لاخبار المغنيين وغيرهم .

ومعناه فقط . وذلك عند نقله المثل « عند جهينة الخبر اليقين » . فبعد أن أورد الميداني هذا المثل ، نقل قصة طريفة ، رواية عن هشام بن الكلبي ، يذكر فيها بأن حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب ، ورجلا من قبيلة جهينة يسمى الاخنس بن كعب خرجا يريدان قطع الطريق فسلبا رجلا لقياه في الطريق . فقال الرجل : ان تركتماني وشاني دللتكما على رجل تحت شجرة معه مغنم كثير فخليا سبيله . واتيا الرجل وهو من لخم . وكانت شجرة يستظل بها وامامه طعامه وشرابه ، فحياهما واشركهما طعامه . فاكلا وشربا . ثم ان الاخنس ذهب لقضاء بعض حاجاته . فلما عاد راى حصين قد قتل اللخمي واستولى على ماله . فجلسا يشربان وكل منهما يخفي في نفسه ريبة لصاحبه . وبعد قليل قال الحصين للاخنس هل تعرف زجر الطير ؟ فقال الاخنس ماذا ترى ؟ قال ارى عقابا كاسرا ، واشار اليه ومد عنقه الى الجهة التي كان العقاب فيها . فافتنم الاخنس هذه الفرصة وضرب عنقه بغتة . ثم انطلق عائدا الى بيته فاذا بامراة حصين تفتقده ، فقال لها ، انه قتله ولكنها لم تصدقه وقالت : « كذبت ما مثلك يقتل مثله اما لو لم يكن الحي خلوا ما تكلمت بهذا » . فمضى الاخنس واتى قبيلته وصالحها وكان غاضبا منهم ، ثم عاد الى امراة حصين وقبيلتها،و انشد حيث تسمع القبيلة :

وكم من ضيغم ورد هموس
ابى شبلين مسكنه العرين
الى ان قال :
تسائل عن حصين كل ركب
وعند جهينة الخبر اليقين

قال الاصمعي وابن الاعرابي : هو جفينة بالفاء ، وكان عنده خبر رجل مقتول وفيه يقول الشاعر :

تسائل عن ابيها كل ركب
وعند جفينة الخبر اليقين

قال : فسالوا جفينة فاخبرهم خبر القتيل . وقال بعضهم هو حفينة بالحاء المهملة ، يضرب في معرفة الشيء حقيقة (1) .

هذه هي القصة ، ومختلف الاقوال ، اوردها الميداني في كتابه حول المثل ، سردنا ها باختصار . الا ان النويري لم يذكر من هذه التفاصيل شيئا . بل اكتفى باتيان معنى المثل وموقع ضربه . فقال : « يضرب في معرفة الشيء حقيقة » (2) .

والواقع ان النويري كان يتحاشى اتيان الرطب واليابس في كتابه ، والروايات التي لا يتاكد من صحتها ، او التي هي منحولة موضوعة،او تقبل الشك والشبهة حتى لا يلقي بنفسه في اطناب ممل وان لا يكون موضع النقد بجمع كل ما وصلت اليه يداه دون اعمال الفكر والروية ، واختبار النبذات على محك علمي ، من شانه ان يميز الصدق من الكذب والغش والوضع . ثم ليأتي بالقصص والنبذات ، التي لها علاقة بالادب بصورة مباشرة .

ومن **الكتب التي اختصرها النويري على هذا النحو ، « فقه اللغة للثعالبي »** و الاحكام السلطانية للمواردي » و « قوانين الوزارة للماوردي » ، وكتاب حسن التوسل الى صناعة الترسل ، لمحمود بن سليمان الحلبي الحنفي و « ذم الهوى لابن جوزي » و « فصول الاحساب للجواني » و « كتاب المنهاج لنحليمي الجرجاني » وغيرها (3) .

— ◆ —

وفضلا عما يغنم به كتابه « نهاية الارب » من الموضوعات الطريفة ، والمواد الممتعة الشيقة ، التي تفيض علما وادبا وفنا ، مما استقاها من مواردها الاصيلة ، فقد اودع كتابه هذا ، من اجمل الاشعار واعذبها ، مما فاضت بها قرائح الشعراء ، حسن السبك وطلاوته ، وغزارة المعاني وعمقها ، ودقة البيان وحلاوته ورصانة التركيب واحكامه ، مما تتلذذ بها الطبائع ، وتطرب لها القلوب وتهتز لها المشاعر . كما تدل على ما اوتي النويري من حظ وافر في حسن الاختيار ، وعلو كعبه في الذوق الشاعري اللطيف ، ومعرفته الواسعة بدواوين الشعراء والكتب، واستخلاص الدرر الغرر من هذا البحر الزاخر . ثم تركيبها في مواقعها بحيث انتظمت في سلك ، تتلالا حسنا وجمالا . فلا يمل القارىء ، وهو يمضي بادق فن واصعبه في كتابه ، بل ينسى ما كابده من جهد وتعب اثناء قرائته لمثل هذه الفنون الدقيقة ، المسيرة الفهم والادراك عندما يبلغ به المطاف الى هذا الجزء

---

1) مجمع الامثال للميداني ج 1 صفحة 391 .
2) نهاية ج 3 صفحة 39 .
3) الكتب الاخيرة الثلاث مخطوطات بدار الكتب المصرية ، لم تطبع بعد .

من الكتاب الذي ضمنه النويري الاشعار ، المتعلقة بهذا الفن ، ومهما كان دقيقا او صعبا . ويجد به متعة وبهجة قلما تضاهيها متعة وبهجة . كانه وصل ارضا ناعما سهلة نضرة ، بعد طوال الشقة ، قضاها في ارض وعرة المسالك .

ومنهج النويري في نقل الاشعار هو ، انه يأتي بباب او فصل من قسم خاص مثلا ، فينقل في هذا الباب او الفصل ما طاب له ان ينقل فيه من الكلام حول الموضوع الذي يبحث فيه الباب ، لكبار الادباء الناثرين والعلماء ، فلما ينتهي من نقله يحاول ان يطبق على ما كتبه من اقوال الشعراء وكلامهم ، فيخوض في دواوين الشعراء والكتب الادبية الاخرى لكي يلتقط منها جميع الاشعار التي تطابق ما اورده من النثر في الفصل السابق فيثبتها في محلها اللائق ، لكي لا يجد القارىء في نفسه كلالا وتعبا من الاقتصار على موضوع صعب جاف . وحتى يجمع كل ما قاله الكبار من الادباء من نثر ونظم حول الموضوع . وبذا يضيف الى ما اورده في كتابه صبغة ادبية ، تميزه من سائر الكتب الادبية . ولكي يسجل مقال الشعراء في هذه الموضوعات بترتيب خاص ، يمكن الاستفادة منها والرجوع اليها في مكان واحد دون الخوض في الدواوين المختلفة ومجموعات كلام الشعراء ، دون ضياع الوقت وتحمل المشقة للبحث والتنقيب . وطريقته فيه انه يحاول جهده ان يبدأ بنقل الاشعار من الجاهلية فالاسلاميين الى المولدين والمحدثين ، ولو يختلف هذا الترتيب في بعض الاجزاء من الكتاب ، لعدم تمكنه من الاستمرار على هذه الطريقة ، اما لضئالة الاشعار عند القدماء في هذا الفن او الموضوع ، واما ، ان كانت لديهم ، فهي ليست من الجودة بحيث يثبتها النويري في كتابه ، مثل التشبيهات الرائعة التي فشت في عصر المولدين ، **او الاشعار في صفة الرياحين والبساتين والقصور او تصوير المناظر الخلابة ، مما لا نظير لها في الشعر الجاهلي** . ثم ان النويري لا يزيد من عدد الابيات مخافة الاطالة ، بل يقتصر عادة على بيتين او ثلاثة ابيات ، ومنها ايضا على البيت القصيد في معظم الاوقات .

ولنقف برهة عند « الباب الثاني من القسم الاول من الفن الثاني » لنرى منهج النويري في نقل الاشعار . وذلك لان هذا الباب خير مثال لطريقته فيه . وهذا الباب يبحث في « اعضاء الانسان » وتشبيهها .

ابتدأ النويري هذا الباب من شعر الانسان . فنقل من فقه اللغة للثعالبي اسماء الشعور بمختلف اقسامها . فلما فرغ من اسمائها وتفاصيلها وضع فصلا ، جمع فيه ما قالته الشعراء حول الشعر عامة وحول شعور النساء بوجه خاص . واحسن ما اورد في وصف شعر الرجال قول ابن الرومي :

وفاحم وارد يقبل متئد
كشاه اذا اختال مرسلا غدره
اقبل كالليل من مفارقه
منحدرا لا يدم منحدره
حتى تناهى الى مواطئه
يلثم من كل مواطىء عفره
كانه عاشق دنا شغفا
حتى قضى من حبيبه وطره

وقول فتح الدين بن عبد الظاهر :

حل ثلاثا يوم حمامه
ذوائبا يعبق منها الغوال
فقلت ، والقصد ذؤاباته
يا سهري في ذي الليالي الطوال

وقول آخر :

رايت على قد الحبيب ذؤابة
فعيني على تلك الذؤابة تهمع
يقول لي الواشون : مالك باكيا
فقلت : بعيني شعرة فهي تدمع

ومن احسن ما انتخبه في وصف شعر النساء : قول بكر بن النطاح :

بيضاء تسحب من قيام فرعها
وتغيب فيه فهو جثل اسحم
فكانها فيه نهار ساطع
وكانه ليل عليها مظلم

وقول آخر :

نشرت على ذؤابا من شعرها
حذر الكواشح والعدو المحنق
فكانني وكانها وكانه
صبحان باتا تحت ليل مطبق

ومن قول المتنبي :

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها
في ليلة ، فارت ليالي اربعا

واستقبلت قمر السماء بوجهها
فارتني القمرين في وقت معا

وقد الم في ذلك بقول ابن المعتز :

سقتني في ليل شبيه بشعرها
شبيهة خديها بغير رقيب
فامسيت في ليلين بالشعر والدجى
وشمسين من خمر وخد حبيب

وقول ابن الدريد الازدي :

غراء لو جلت الخدود شعاعها
للشمس عند طلوعها ، لم تشرق
عمن على دعص تالق فوقه
قمر تالق تحت ليل مطبق
لو قيل للحسن : احتكم لم يعدها
او قيل : خاطب غيرها ، لم ينطق
فكاننا من فرعها في مغرب
وكاننا من وجهها في مشرق (1)

وفي الكتاب ابيات اخرى قيلت في شعر النساء، الا انني اخترت احسن ما وجدته تعبيرا ووصفا .

فلما فرغ من نقل الاشعار حول الشعر ، اتى بفصل آخر ، بين فيه بمناسبة الشعور ، « ما قيل في الشيب والخضاب من مدح وذم » اورد في هذا الفصل من النثر ما كتب حول الموضوع . اردفه باشعار تذم الشيب والخضاب واخرى تمدحه وترحب بمقدمه . ثم ذكر نظرة المراة الى الشيب وعوارضه ثم بدا باعضاء الانسان من نثر ونظم . فاجمل ما قيل في وجه المذكر قول الوجيهي :

ومستقبل بالذي يهوى ، وان كثرت
منه الاساءة ، معذور بما صنعا
في وجهه شافع يمحو اساءته
من القلوب ، وجيها حيثما شفعا

ومنه اجمل ما قيل وجه المؤنث قول ابن سكرة:

في وجه انسانة كلفت بها
اربعة ما اجتمعن في احد
فالخد ورد والصدغ غالية
والريق خمر والثغر من برد
لكل جزء من حسنها بدع
تودع قلبي ودائع الكمد

ومن اجمل ما قيل في الحواجب قول الزاهي :

واغيد مجدول القوام جبينه
سنا القمر البدري في الغصن الرطب
تنكب قوس الحاجبين فسهمه
لواحظه المرضي ، وبر جاسه قلبي

وما قيل في العين بلفظ التذكير قول عبد الله ابن المعتز :

عليم بما تحت الصدور من الهوى
سريع بكر اللحظ والقلب جازع
ويجرح احشائي بعين مريضة
كما لان مس السيف والسيف قاطع

ولقد اجاد جرير في وصف عين مريضة اذ قال:

ان العيون التي في طرفها حور
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن اضعف خلق الله اركانا (2)

وكذلك اتى بنخبة ممتازة من **الاشعار حول الخصر والمشي واليدان وغير** ذلك من الاعضاء . فابدع فيه واجاد الاختيار .

ولقد ابدع ابن الرومي عند ما جمع اكثر المزايا والاوصاف التي تستحسن من المحبوب حيث قال !

مخففة مثقلة تراها
كان لم يعد نصفيها غداء
اذا الاغباب جدد حسن شيء
من اشياء جددها اللقاء
لها ريق تشف له الثنايا
ويروى عنه ـ لا منه ـ الظماء
وانفاس كانفاس الخزامي
قبيل الصبح ، بلتها السماء
تنفس نشرها سحرا فجاءت
به سحرية المسرى رخاء

وقد اعتمد النويري في انتخاب اشعاره على دواوين الشعراء اولا ، ثم « كتاب المنتحل » للثعالبي ، فالعقد الفريد لابن عبد ربه ، فعيون اخبار لابن قتيبة،

---

1) نهاية الارب ج 2 صفحة 20 .
2) راجع لهذا الموضوع نهاية الارب ج 2 من صفحة 21 فما بعد .

« وزهر الآداب » للحصري القيرواني و « ديوان المعاني » لابي هلال العسكري وكتاب « نفح الطيب » وغيرهم من المصنفين والادباء .

ولاحظنا ، عند تصفح الاشعار التي اوردها النويري ، انه عند نقله الاشعار من الجامعين وكتبهم ، يقتصر على ما اورده الجامع ، واحيانا يضيف عليه بيتا او بيتين . وطورا نراه يترك ما اورده المصنف بتاتا ، ويأتي بشعر من انتخابه هو يلائم الموضوع . وذلك ان النويري اديب يحظى بقسط اوفر من حسن الذوق الشعري والادبي وله ملكة حسنة في الاختيار ، فهو عندما يرى ان الجامع لم يحسن الانتخاب من كلام الشعراء حسب الموضوع او المناسبة ، يقوم هو بنفسه في البحث في الدواوين ومجموعات كلام الشعراء ، عن كلام يناسب الموضوع والمناسبة ، ثم ينتخب احسنه ويثبته في محله . وخير مثال لهذا ما نقله من الاشعار في تمثيل الامثال ، التي اقتبسها من كتاب المنتحل للثعالبي من الباب العاشر « في الامثال والحكم والآداب » . فنراه انه لم يقتصر على ما اورده الثعالبي في هذا الصدد ، وانما اختار بنفسه واضاف عليه . فالثعالبي مثلا لم يتمسك بترتيب عصور الشعراء وزمانهم ، فخلط فيما بينهم ، حيث اورد شعر الجاهلي ، اعقبه بمولد ، ثم مخضرمي باسلامي ، وهكذا في سائر كتابه . اما النويري فانه اهتم اهتماما بالغا في ذكر الاشعار حسب ترتيب عصر الشعراء . فابتدأ بالجاهليين ثم العباسيين فالمحدثين والمولدين ، الى ان بلغ الى عصره .

فاذا القينا نظرة على ما اورده النويري ، من الاشعار المنتخبة في كتابه يتضح لنا بانها تشمل نخبة قيمة ممتازة من روائع الشعر في شتى اصناف المعاني والموضوعات ، يتعذر وجوده في كتاب واحد. وهذه الصبغة تضفي على نهاية الارب صبغة تجعله ـ حقا ـ موسوعة شعرية ، تشمل كلام الاوائل والجدد في مختلف المعاني والموضوعات والمواد ، بترتيب حسن وبنظام منسق مقبول . فالباحث يستطيع ان يستخرج من هذا الكتاب اشهر بيت قالته العرب وفي اي معنى شاء ، دون جهد او مشقة بالغة ، ولشعراء جميع العصور التاريخية المختلفة . وتلك ميزة ينفرد بها هذا الكتاب . وفضلا من هذا فان هذه الاشعار تشير الى ان النويري كانت له يد طولى في انتخاب اشعار وذلك بفضل هذا الذوق الرفيع والحس الشاعري اللطيف الذي يتمتع به . فاننا نراه لم يات بشعر مهلهل متفكك ، وانما جاء بنخبة كلها من الطراز الممتاز . ومن جميع النواحي ، من ناحية جودة الالفاظ وحسن سبكها وروعة نظمها ومن ناحية المعنى واداء الغرض والمطلب الذي اورده لاجله . وهذا خير دليل على سعة علم النويري بفنون القريض والشعر واسراره ، ودقة نظره في خبايا هذا الفن واستخراجه. ومدى اطلاعه على المصادر الشعرية والمراجع . وعلى هذا الوله الادبي ، الذي حفزه على ان يتعب نفسه ويبذل كل جهوده ، في جمع هذه الاشتات المبعثرة في الكتب والدواوين المختلفة الكثيرة ، حتى قدمها الينا في صورة باقة جميلة تزينها انواع واشكال من الزهور والورود .

وهكذا يتضح لنا من دراسة كتاب « نهاية الارب في فنون الادب » ، وما سلكه النويري من منهج لتاليف موسوعته هذه ، التي لها اكبر فضل في حفظ قدر ملحوظ من تراثنا القديم ، مما تركه لنا اسلافنا خلال القرون الست التي مضت على التاريخ الاسلامي الحافل . فمنهج النويري قيم ، لا غبار عليه ، يقوم على فكرة وروية واضحين . وقد تم التاليف بطريقة يمكن الاستفادة منه استفادة تامة. ماعدا عدم ذكره المراجع، مما يكابد الباحث والدارس لمراجعه ، مشقة العثور عليها في مختلف الكتب ، فتقسيم الكتاب على فنون ، وهذه الفنون على ابواب وفصول ، وكل فصل ضمن علم خاص او نبذة معينة ، ليسهل على الطالب مهمة البحث المضني ، اذا لم يكن مدونا بهذه الصورة . ككتب الجاحظ التي هي الاخرى موسوعة بمجموعها . ولكن المرء يحتار امام هذه المجموعة غير المرتبة ترتيبا لائقا ، فلا يبلغ مناه الا بعد طول المشقة وكبير عناء . ثم يمتاز كتاب النهاية بعدم اخلاط موضوع في موضوع آخر ، كالذي تجده في كتاب « الكامل للمبرد » او لسان العرب لابن منظور . فانهم يتكلمون عن موضوع ويسهبون فيه اسهابا حتى يخيل الى القارىء ، انهم نسوا الموضوع الحقيقي ، ولكنهم يرجعون الى الموضوع الحقيقي بقولهم « رجع القول الى .... » . اما النويري فانه لا يعمد الى موضوع ثان ما لم ينته من الموضوع الاول الذي كان يتكلم حوله . ولقد بالغ النويري في نزاهة كتابه من هذا النوع من « الخلط بالمبحث » الى حد ، انه اثناء نقله من الكتب ، اذا وجد شيئا عارضا ، على الموضوع الاصلي الذي يتناوله ، يحذفه بتمامه ، ويواصل نقله من الجزء الذي يتصل الكلام فيه بالكلام الحقيقي . ولاجل هذا نراه يحذف صفحات كثيرة متتابعة من الكتب المنقول عنها ، او نجده ينتقل من جزء الى جزء

آخر من الكتب ، ليواصل موضوعه الاصلي بدون عارض ، او « الخاط بالمبحث » . ونلاحظ هذه الظاهرة واضحة ، عند نقله « اخبار المغنيين والمغنيات» من الاغاني التي يسهب صاحبها احيانا في سرد اخبار لا تتعلق بالشخصية التي يتكلم عنها وانما هي عوارض اما النويري ، فانه يحذف هذه الزوائد والحشو . ويقتصر على الموضوع الذي يتناوله بالكلام .

وقد حاول النويري اثناء نقله ، تسديد الخطأ الذي وقع فيه بعض المصنفين . فروى الثعالبي مثلا . بأن الشعر القائل :

وما ينهض البازي بغير جناحه
ولا يحمل الماشين الا الحوامل
اذا انت لم تعرض على الجهل والخنا
اصبت حليما او اصابك جاهل

قال « انه لعبيد الابرص » (1) الا ان النويري ضبطه لاوس بن حجر . ولقد تصفحت ديوان عبيد الابرص بنفسي ، فلم اجد فيه هذا الشعر ، وما قاله النويري فيه هو الصحيح .

ثم ان النويري لا ينغمس في المسائل المختلف فيها . مثل مسألة سماع الغناء ، او مزاولة الاذكار والادعية ، وخاصيتها التي يعتقد بها الطائفة الصوفية. فانه في مثل هذه المسائل يقتصر على نقل آراء الجانبين دون ان يبدي رايه، فيرجح هذا ويسفه ذاك. او يميل الى هذه النظرية ، ويتغاضى عن تلك . بل يترك القارىء حرا يتصرف فيه ـ بعد معرفة راي الجانبين ـ كيف شاء وباية طريقة يفضلها على غيرها.

والى جانب هذه المزايا التي تمتاز بها موسوعة نهاية الارب ، هناك اغلاط لم يسلم النويري من اقترافها . ولكنها اغلاط بسيطة ، لايؤبه بها . مقارنة بعلمه العظيم هذا فقد ذكر النويري مثل اسم « سموئيل بن العاديا » بين الشعراء المخدلين ، والحقيقة انه من شعراء الجاهلية دون اختلاف . والغريب في الامر ان مصححي الكتاب ايضا لم ينتبهوا الى هذا الخطأ الفاحش ، فطبع الكتاب حاملا هذا الخطأ . ثم ان النويري ذكر اسم خصي معاوية بـ « رفيق » في قصة تزويج معاوية يزيد (2) . ولقد اخذ هذه القصة من « الامامة والسياسة » لابن قتيبة الا ان ابن قتيبة ذكر اسمه بـ « رقيق » وذلك هو الصحيح ، كما ورد في جميع النسخ الموجودة ، المطبوعة في مختلف المطابع . وكذلك اورد اسم محبوبة يزيد بانها « زينب بنت اسحق » الا ان اسمها الصحيح هو « زينب بنت اسحاق » (3) .

وهناك غلطة عجيبة وقع فيها النويري لم ادر كيف . ومن اين وهو استعمال كلمة « السبا » بدل كلمة « الجسأ » بمعنى « ان يمسر على الانسان فتح عينيه » . اذ ان كلمة « السجا » لا توجد بالقواميس وليس لها اي مدلول او معنى (4) ويبد لي بأن هذه الاغلاط وقعت من الناسخ اذ ان النويري مع غزارة علمه ووفرة اطلاعه ، يستبعد ان يقع في مثل هذه الاغلاط .

والعيب الاساسي الذي يؤاخذه الباحث عليه ، هو انه لا يذكر المرجع عادة ، وخاصة في العلوم الادبية ، وعدم ذكره له يجعل الباحث في حيرة من امره . حيث يضيع الوقت في البحث . فكثيرا ما تستغرق نبذة وجيزة للبحث عن مصدرها ساعات وايام في بعض الاوقات ، مثل ما حدث لي عند البحث عن العين الذي اتخذه من الذخيرة لابن بسام . فقد استغرق عن هذا الاقتباس مني حوالي ثمانية ايام . ثم انه عندما يضيف شيئا الى ما ينقله من كتاب آخر لا يشير اليه ، مما يوهم الباحث انه ايضا من اصل الكتاب ، والحال انه من عنده . كما حصل عند جعل شروط الامامة ثمانية شروط ، بدل سبعة شروط كما اوردها الماوردي .

ومهما يكن ، فليس من شك ، بأن منهج النويري في كتابه هذا ، **منهج يضاهي احسن مناهج عصرنا الحديث** ، الذي تقدمت فيه صناعة التاليف اي تقدم. ولمنهجه الواضح المفيد ، ولما يحوي من الموضوعات الغزيرة والعلوم النافعة المتنوعة « يعتبر احد الكتب الجامعة الهامة ، ذات المواد العامة وهو عمدة بين الكتب كذلك . اعتمد عليه كثير من المؤرخين والادباء قديما وحديثا » (5) .

---

1) المنتحل للثعالبي صفحة 171 .
2) نهاية ج 6 صفحة 183 .
3) راجع الامامة والسياسة ، لابن قتيبة .
4) راجع لهذه الكلمة : اقرب الموارد لسعيد الخوري الشرتوني اللبناني وتاج العروس : لمحمد مرتضى الحسيني الزبيدي (فصل الجيم من باب الهمزة) واللغات الاخرى .
5) عصر سلاطين المماليك : لمحمود رزق سليم ج 3 صفحة : 125 .